نابليـــــون الأديب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

حدّثوا أن نابليون كان يرتو ذات يوم إلى البحر الساجى فى « سنت هيلين » ، يفكر فى أمره : كيف صفّق له النصر ، وابتسمت له الدنيا ، وكيف خانه الزمن فأودى به إلى هـذه الجزيرة الغرقى وسط البحار ... فابتسم وصاح : إن حياتى لرواية رائعة ، ما كان ضرنى لو كتبتها

على أن نابليون إن لم يسجل هـذه الرواية بنفسه ، فقد سجلها التاريخ ، وحفظها الناس فأكبروا منه ذلك الجبروت الطاغى وتلك العزّة الرفيعة . وكأن نابليون أراد أن يجمع إلى خلود البطولة والعظمة ، خلود الأدب والفن ، فودّ لو يكتب ويؤلف .

ولقد ذهب « سانت بوف » شيخ النقد فى فرنسة ، إلى أن نابليون كان أكبر أديب عرفه عصره . واحتج لذلك بروائع خطبه التى كانت تنعش الأمل الذاوى ، وتحيى القلب اليائس . ألم يثر جنوده العراة بكنوز إيطاليا ومحاسنها ؟ ألم يكلم الهرم ويجعل القرون تنظر إلى أشبال فرنسة الفاتحين ... ألم يسكب الحياة فى نفوس فرسانه ، هناك فى سهول أوسترليتز ... ؟ فلقد كانت فصاحة لسانه وبلاغة بيانه تؤثران فى كل قلب ، وتنفذان إلى كل روح ؛ والفصاحة والبلاغة بنتا الأدب البكر الجميل

ولقد ذهب « جاك بانفيل » الكاتب الفرنسى الكبير إلى ما ذهب إليه « سانت بوف » من قبل . ورَجَعَ ذلك إلى أن آل بونابرت كانوا ذوى بلاغة تخلب ومنطق بفري ، وأن قلوبهم كانت ترفّ إلى الفنون والآداب . ولعل ذلك آت عن أصلهم الفلورنسى القديم — وفلورنسة كانت مهد الآداب فى حقبة من الزمن — ، ومن أبيهم شارل بونابرت الشاعر الأديب . فلما تسنموا العروش كانوا من حماة الآداب ومشجعى الأدباء . فلقد شجّع جوزيف بونابرت ولويس بونابرت ولوسيان بونابرت حملة الأقلام ، وإن كانوا وجّهوها وجهة خاصة وسخّروها لتوطيد سلطانهم . على أن نابليون وحده كان ذا موهبة قصصية رائعة . فقد كانت أفكاره تتدفق ويومض كالبرق ، ملىء بالصور الأخاذة والتعابير الراقصة والألوان البارعة

ولقد كان ميل نابليون إلى الأدب يحبب إلى نفسه كل رقيق لطيف . فقد كانت تؤثر فيه الموسيقى الناعمة ، وتهزه أشعار « أوسيان » الحالمة ، وتعجبه مآسى « كورنيل » المترعة بالفخار المفعمة بالبطولة ، ويطرب « لهيلويز الجديدة » ؛ ويقول عنها : « إن هذا الكتاب سيبقى إلى الأبد كتاب الشباب . ولقد قرأته وعمرى تسع سنوات فأطار لبّى وأذهلنى ... »

وكانوا يقولون : إن لنابليون خيالاً جباراً ، وإنه كان يختلق الأقاصيص المرعبة ، أقاصيص الجان والشياطين ، والغامرات والبطولات ؛ يُسمعها رفقاءه فى الليل ، أو زوجه وأولاده فى ليالى الشتاء .

وقد عُثر فى ثنايا الأوراق التى كتبها فى صباه ، والتى أودعها بعد واترلو الكاردينال فيش Fesch على أقاصيص ثلاث نشرت فى عام ١٨٩٥ فى فلورنسة تحت عنوان « نابليون المجهول » ، وقد كتبها فى عام ١٧٨٩ عندما كان ضابطاً فى « أوكسون » . أما القصتان الأولى والثانية ، فقد قبسهما من التاريخين العربى والإنكليزى . أما الثالثة ، فهى من تأليفه ، وفيها يصور كورسيكياً شيخاً فرّ مع ابنة له إلى جزيرة مصخرة تناطحها الأمواج هرباً من ظلم (قوم) ذبحوا أبناءه وذويه .

وتصرمت أعوام ... وإذا بالعالم البولونى سيزيمون اسكيناري يخرج للناس قصة كتبها نابليون فى عام ١٧٩٥ عنوانها « كليسون وأوجينى » : لها صفات القصة الوصفية التحليلية ، وفيها حقيقة يشوبها خيال ، وهى أشبه بما يكتبه الأدباء أول عهدهم بالكتابة .

كتب نابليون هذه القصة وهو يتخطى الخامسة والعشرين من عمره ، أوحاها إليه حبه لفتاة اسمها Desirée Clary وهى الفتاة التى عرف بها الحب الأول . وكان قد رآها فى مارسيليا ، إذ أتى إليها بعد أن ذاع اسمه فى حصار « طولون » فأحبها . وكان دقيق العود جميلاً ، فألهب خيال هذه الفتاة بعينيه الزرقاوين

وشعره الأشقر ، وكلامه المتدفق كالماء ، اللاهب كالنار ؛ وأسكرها بأقاصيصه الحلوة ، وأطربها بأشعار أوسيان الذائعة . وتحايا . . .

ولم يطل بقاء نابليون فى مارسيليا ، فاضطر إلى السفر إلى باريس ، تاركا حبيبته الصغيرة وحدها . وما وطأت قدماه باريس حتى أرسل إليها رسالة فيها الشوق والحب والحنين ، ولكن أهلها منعوها من الكتابة إليه . فاضطرب نابليون لصمت الحبيبة الصغيرة ، فكتب إليها كتاباً يصوّر لها فيه باريس الفاتنة ليثير شوقها إليه . ولكنها صمتت أيضاً فكتب يقول :

« إن الحياة حُلم رقيق لا يلبث أن يذوب كالضباب . إننى أشعر وأنا أكتب الآن بهياج فى عواطفى ما شعرت بمثله قبل هذا اليوم . ولئن طال هجرها لأقتلن نفسى ، ولأرمين بهذا الجسم تحت عجلات العربات . . . »

ثم عاوده الحنين . فكتب إليها مرة أخرى ، ولكنها لم تحفل به وأعرضت عنه . عندئذ ضاق ذرعاً ... فكتب لنا قصته هذه ، وقص على الناس فيها نبأه ونبأ « أوجينى » الغادرة ، وكيف نشأ وترعرع ، وكيف أحب وكيف خان الحبيب ، وسمى نفسه « كليسون » وحوّل قليلاً وحوّر

لقد كتب فى قصته : « وُلد كليسون للحرب والنزال ، وكان يعلم سير القواد وهو ما يزال صبياً ، وكان يحب أن يتفقه فى فن القتال مذ كان فى المدرسة يافعاً ، على حين كان رفقاؤه يفتشون عن الفتيات يلهون بهن . فلما قارب السن التى تؤهله للقتال ، أقبل على الجندية مسرعاً . فبرع فى أمورها ، وناداه النصر ، فذاع فى الشعب اسمه ، ونظر إليه الوطن كبطل من أعز أبطاله ، ولكن روحه كانت ما تزال ظمآى للنصر والخلود ، ولقد كانوا يسمون طموحه كبرياء ، وقوة إرادته شدة ، وكان ينظر إلى نفسه البكر فيتأمل فيها ، فيرى أنه أبعد الناس عن الحب . فلقد كان له خيال مشبوب ، وقلب ملتهب ، وعقل راجح ، ولكن فكره كان « بارداً » لا يسعفه بالخاطرة البارعة والنادرة الفريدة فدفعه ذلك إلى الملل من دلال الفتيات والابتعاد عن التلطف والتظرف ، وعن تزوير الجمل واللعب بالكلمات لينال رضاهن وعطفهن

« وكان يحب أن يشرد فى الغابات الخضراء ، لا يحفل بالتعب ولا يخشى العناء ، ليبتعد عن جنون البشرية وانحطاط أهلها

« وكان يستسلم إلى أمانيه ، ويصغى إلى همس فؤاده ، فيخلد إلى العزلة ، وينظر إلى الليل الحزين الهادئ المزدان بأشعة القمر ، ويستمع إلى صوت الطبيعة الخفى ، حتى إذا تنفس الصبح ، عاد حزيناً سادراً لينال قسطاً من الراحة التى ظمئ لها

« وكان يعجب باختلاف ألوان الطبيعة ، يهتز لميلاد النهار ، ويطرب لغروب الشمس ، ويصفق لأغاريد العصافير ، وخرير المياه ، ورفيف السهول . وكان ينفق الساعات فى تأملاته هذه فى أعماق الغاب ...

« على أن ميوله هذه أفهمته أنه بعيد عن الحرب وفنها ، وعن الدمار وأصوله . وكان يُخيَّل إليه أن تهذيب الشعوب وإسعادها خير من قتالها وقتلها ... ولكنه كان يسعى إلى التخلص من هذه الفكرة التى لم تطرب نفسه لها

« وفى هذه الفترة يلقى كليسون أوجينى مع ترب لها اسمها « إميليا » فعرفهما . وكانت إميليا كقطعة من الموسيقى الفرنسية ينصت الناس إليها بشوق ، أما أوجينى فكانت كأغرودة العندليب أو كقطعة من موسيقى « بازيللو » الإيطالى لا تعجب بها إلا النفوس الرقيقة الحساسة ... ...

« ولقد كانت إميليا توحى الحب بجمالها ، أما أوجينى فكانت تعجب الرجل القوى الذى لا يحب تحت سلطان الدلال والذوق ، ولكنه يحب لأنه يشعر بأنه بحاجة إلى الحب ...

« ومسح فؤاد كليسون — الذى اعتاد النصر والمغامرات — هواء مسحة جميلة ، وأكسبه قوة وصلابة ... فعلمت أوجينى أن عليها أن تتصل بهذا الرجل العظيم ، ليذيقها السعادة الخالدة . فيكتب لها الخلود

« وتزف أوجينى إلى كليسون ، ويرزقان أولاداً ، وبنتاً اسمها « صوفيا » ، وكانت أوجينى زوجة غيوراً ، تخشى شر الفتيات أن يغرين زوجها ... ولقد غضبت عليه يوماً ، وانفجرت باكية تقول : إذا كنت تريد أن تصدف عن حبى فخذ بهذه اليد التى كانت تداعب حبيبتك — حياتى ... ولكن نابليون يهدئ روعها ، ويقسم لها ليبقين على العهد ، وليحفظن الود

« ... ويضطر إلى الرحيل ليقود كتيبة إلى المعركة ... فيترك أوجينى تنتحب وتذرف الدمع ، ويحرز نصراً بعد نصر ، وينال شهرة بعد شهرة ، وكانت زوجه ترسل الرسائل إليه كل يوم ، ولكنه كان لا يعبأ برسائلها ، ويحاول أن ينساها ، فيرسل إليها « بيرفيل » الضابط الجميل الذى كان فى فجر حياته ، يفتش عن فتاة يودعها قلبه ، فأحبته ، وكان الحب « باسم الصداقة » ، ثم ما لبثت أن نسيت حبيبها الأول كليسون ، وانقطعت عن الكتابة إليه

ويذكر كليسون حبه وهواه يوماً ... فيحن ... ويشتد به الحنين ... ويرى أن فتوره قد جنى عليه ، فيداخل اليأس قلبه ، ويقرر الانتحار ، ولكنه يرسل إليها رسالة يودعها بها ويقول :

« وداعاً أيتها الحبيبة التى قضيت معها أجمل أيامى ... لقد ذقت بين ذراعيك السعادة المسكرة ، وارتشفت لذات الحياة وأطايبها ترى ماذا بقى لأيامى المقبلة غير الملل والضجر ؟ ... لقد ذقت وأنا فى السادسة والعشرين من عمرى اللذات الفانية ... ولكنك أذقتنى بحبك الشعور العذب بالحياة ... إن هذه الذكرى لتمزق قلبى ... أتستطيعين العيش سعيدة دون أن تتذكرى أبداً فى أمر كليسون البائس ؟ ... قبّلى أولادى يا أوجينى . . قبليهم ... ولا تجعلى إليهم روح أبيهم الملتهبة المتأججة ، لئلا يكونوا مثله ضحايا الرجال وضحايا النصر والحب ...

ويرسل الكتاب إليها ... ويقود الكتيبة بعزم ، وإذا به يسقط إلى الأرض « مثخناً بالجراح ... ويموت »

تلك هى القصة الرائعة التى كتبها نابليون وهو فى نعومة صباه . وفيها نجد بلاغة تخلب ، وصوراً تغرى ، وقسوة ترعب ، وحناناً يهز ولو أن هذا البطل لم يسلك طريق الحرب ، لكان له فى الأدب روائع وفرائد ... ولكان أدبه كالربيع الضاحك ، فيه زهور وعطور ، وفيه جمال وصفاء ، وفيه نغمات وقبلات .

(دمشق) صلاح الدين المنجد